الزينـــة

عند قدماء المصريين

أناقة الرجال — الزى والحلاقة والحلى — زبرجة النساء — الثياب — الاصباغ — العطور

للأستاذ حسن صبحى

« تلبس ثيابا من الكتان الناعم
وتركب الخيل وتحمل لها السوط الذهبى فى يدك
لك سرج جديد شغلته ايدى الشوام
وتجرى أمامك العبيد يصدعون بما يؤمرون
يدهن جسمك كبير معطريك بطيب الكيمى
وفمك ملىء بالنبيذ والخمير . . . .
. . . . الخ »

« من قصيدة تحية المعلم من الشعر المصرى القديم »

يالها من أناقة وفخامة ! ثياب من كتان ناعم ! وسوط الركوب موشى بالذهب ! وسرج جديد من صنع أهل الشام ! وعبيد سياس يجرون امام السيد المعلم يفسحون له الطريق ويصدعون لما يأمرهم به ! وعطور وطيب يدهن به جسمه !

وأية أناقة تعدل هذه الأناقة ! وأين هاتيك الأناقة الرائعة ، والفخامة فى الثياب وفى المركب وفى الخصاصية مما نحن عليه الآن ، ومما نظنه منتهى ماوصلت اليه مدنية القرن العشرين بعد الميلاد !

لسنا نحن الذين نصف ازياء المصريين فنتهم بالتحيز لأجدادنا ، بل هم المصريون أنفسهم يتحدثون عن أزيائهم فى هذا الشعر القديم ، ولا يتركون لمتشكك فرصة ما فى ان يظن بهم غير ما يصفون ، فيخلفون فى قبورهم الثياب الكتانية البيضاء الناعمة ، والحلى الذهبية المطعمة بالجواهر والاحجار ، ويخلفون القفازات . والصنادل الجلدية الفاخرة ، ويخلفون السروج المزركشة بالذهب والفضة ، والسياط المنقوشة الموشاة بالذهب والفضة وكرائم الاحجار ، وآنية مرمرية وأخرى رخامية تحوى عطوراً فيها السوائل وفيها الصلب وفيها مابينهما من معاجين ومقشطات ، ويخلفون غير هذا وذاك صورا على الجدران تمثلهم فى هذه الثياب الرقيقة ، وهاتيك الحلى الثمينة ، وتلك الأناقة الرشيقة ، وتمثلهم وهم يدهنون ، وهم يعطرون ، وهم يتزينون ! . . .

أفنستطيع بعد هذا ان ننكر على القوم ما كان لهم من « تواليت » ! ؟ وتواليت دى لوكس ايضا ؟ !

اناقة الرجال :

نظر المصريون الى الرجل من نواحى الرجولة التى تبعده كل البعد عن المرأة ونواحى الأنوثة فيها ؛ فالرجل يجب أن تبدو منه عضلاته دليلا على القوة والبأس ، الم يخلق للعمل والحرب ؟ إذن : فليترك صدره ليبرز ماعليه من الفورسبس (عضلات الصدر) أمام الأعين ، دليلا على قوة الرجل أو هزاله ، وليخلى عن ذراعيه من الثياب ليظهر مافيها : بايسبس وترايسبس (عضلات الذراعين فوق الرسغ والكتف) فيميز الناس فيه القدرة والعجز ، ولتحلى تلك الصدور البارزة القوية بالعقود والمدليات وتلك الاذرع والمعاصم بأساور من ذهب أو مايشبه الذهب ، كى تستلفت العين الى مافيها من شدة وبأس وكمال فى النمو ، هى ما يقترن بلفظ « الجمال » فى الرجل ، ومايميز جمال الرجل عن جمال المرأة .

هذا الجمال فى النمو وفى الشكل توجده الطبيعة فى الأصل ، ولكنها تكل للرجل تعهده والعناية به ، فهو لابد مستمر فى القيام على اظهاره فى أجمل صورة له ، وهل يتم له هذا الاظهار الا بمداومة النظافة والرياضة والعناية ؟ والنظافة لم تكن بعيدة المنال على المصريين فقد كان النيل دائما الأب الرحيم ، يغتسلون فيه ، وفى ترعه ، وفى مياهه يجرونها فى قنوات الى بيوتهم ، ونقرأ فى قصصهم عن احواض الاستحمام التى كانت تبنى فى القصور ، كما نقرأ عن ضرورة الاغتسال قبل الصلاة ، وضرورتها لرفع الحدث الأكبر ، أى انها جعلت ركنا من أركان دينهم ، كما ينص الأسلام على ضرورة الوضوء والاغتسال قبل الصلاة وبعد الحدثين

واذا عرفت ان المصرى القديم لم يكن يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يعمل الا بعد ان يؤدى صلاته لألهه ، وعرفت ان الدين كان فى دم المصرى القديم الى حد ان أفقر الناس كان يبنى دار دنياه من طين ، بينما يبتنى لنفسه فى حياته قبراً من أغلى الاحجار التى يستطيع شراءها ، ويسمى هذا القبر : (البيت الأبدى) بينما يدعو مسكنه الدنيوى (بيت الاختبار) ؛ اذا عرفت هذا كله ادركت مبلغ تدخل الدين فى كل شىء ، ومكان النظافة الشخصية من نفس كل مصرى تبعا لعقيدته .

الحلاقة

والنظافة عند المصرى القديم ليست الاغتسال بالماء فقط ، اذ نرى من صورهم الكثيرة جدا ، انهم كانوا يقصون شعور رؤوسهم ، ويقصرونها لتميز رؤوسهم عن رؤوس النساء ، ثم كانوا حليقى الوجوه ، لا لحى ولا شوارب ، ولم يكونوا يكتفون بقصها أو

قطعها ، ولكنهم كانوا يحلقونها بالأمواس لتكون وجوههم نظيفة خالية المسام ، تميزهم عن غيرهم من الشعوب التى كانت ترخى ذقونها وشواربها كشعب فلسطين وشعب ليبيا وغير هؤلاء ممن ظهرت صورهم على الآثار بلحى وشوارب سوداء طويلة .

وقد يعجب القارىء اذ يعلم ان المصريين عرفوا أمواس الحلاقة منذ خمسة آلاف عام ، لكنها حقيقة خلفوا آثارها لنا ، اذ يحوى المتحف المصرى طائفة كبيرة من هذه الأمواس مصنوعة صناعة متقنة من شظايا الجرانيت والاردواز والبازلت الصلبة التى تتحمل الترقيق والتشحيذ ، وتقاوم استمرار استعمالها فى الحلاقة .

وإذ نمر بالاغتسال وبالحلاقة بعد الزى ، وهى أوليات التواليت ، فاننا نصل الى أقصى مراتب التواليت ، وهى ماسميته من قبل « تواليت دى لوكس » .

التواليت العالى

لم يكن للرجل العادى نصيب فى التواليت العالى ، الذى لم يكن يعرفه غير أفراد الطبقة الممتازة . من الملوك والكهنة والوزراء والكتاب والأعيان .

هؤلاء كانوا يستمدون من ثروتهم وسلطانهم ما يستطيعون أن يقتنوا به العطور والأدهان يطلون بها أجسامهم كى تطيب رائحتها وينعم جلدها وتبرق بشرتها ، فيبدو كل ما فيها من جمال الرجولة وأناقتها . وكانوا يلبسون فى أيديهم القفازات ، لا يتقون بها البرد ، وصدورهم وظهورهم عارية ، ولكن ليقبضوا بها على الأقواس ويشدونها حين يطلقون منها السهام ، ويكملون بها زينتهم وأناقتهم . ثم يضعون فى أقدامهم صنادل أنيقة من الجلد الموشى بالخيوط الذهبية ، مبالغة فى الأناقة والرفاهية .

هذه صورة حقيقية للرجل المصرى من الطبقة الممتازة :

رجل كامل النمو فى جميع أجزاء جسمه ، لا يسترمنه غير عورته ، بسروال قصير من الوسط الى الركبتين مصنوع من الكتان الابيض المثنى (بليسيه) ، يلبس فوق صدره عقودا وخرزا وفى معصميه أساور من ذهب ، حليق الوجه منسق شعر الرأس قصيره ، لا يضع على رأسه شيئا ، يلبس قفازا من الجلد وصندلا من الجلد ، ويمسك بيده سوطا من الجلد موشى بالذهب يسوق به فرسا يمتطيه ، وتحوطه مظاهر الفخامة والاناقة والرجولة !

هل منكم من يعطينى صورة أكمل لأناقة الرجولة من هذه الصورة بعد مضى خمسة آلاف عام على هذه الأناقة وعلى هذا التواليت ؟!

زبرجة النساء

لم تكن المرأة المصرية القديمة محجبة ، ولم تكن للرجل مجرد متعة ، اذ كانت تشاطره العمل فى الملك ، وفى الكهانة ، وفى الحقل ، وتقوم بنصيبها فى البيت أيضا . تربى أطفالها ، وتجهز بيتها ، وتطهى طعام أسرتها ، وتحيك ثياب زوجها وصغارها ونفسها . . . . . وكل هذا يضعنا وضعا صحيحا أمام حالة المرأة المصرية كى نفهم على أى أساس كانت تقوم المرأة بعمل تواليتها فى مصر .

كانت المصرية (ربة بيت) فثوبها يجب أن يكون طويلا يستر ذراعيها وصدرها وكعبها ، لكنه كان أنيقا ليجارى أناقة رجلها ، فهو اذن ثوب يجمع بين الحشمة والأناقة ، يستر انوثتها المغرية ، ويبرز انوثتها الطبيعية غير المثيرة . ثوب طويل ضيق ذو ثنيات (بليسيه) يكون فى معظم الأحوال أبيض ناصعا تتجلى فيه نظافتها وأناقتها ، يسدل عليه فى بعض الأحيان ثوب شبكى من خيوط ذهبية أو فضية ، ويتدلى فوق هذا الثوب شعرها الأسود الفحمى الطويل ، مصفوفا منسقا فى ضفائر ملتوية ، هى آية فى الاعجاز والأناقة اذا قيست بتنسيق الشعر فى العصر الحاضر .

ولم يكن السمن من سمات الجمال المصرى ، فقد حرص المصريون القدماء على تصوير نسائهن فى نحافة ورشاقة كأمثلة ونماذج للجمال النسوى ، وامتدحوا نحافة السيقان فى اشعارهم وغزلهم ، اذ يقول الملك خوفو لكبير أمنائه حين أراد النزهة فى قارب :

« هيا احضر عشرين فتاة نحيفات السيقان والاذرع ، ناهدات الصدور ، لم يخلق مثلهن من قبل » (من قصة الملك خوفو والسحرة : قصص البردى) .

العطور

لم يكن نصيب هذا الجسم المستور الجمال ، من العناية والتواليت بأقل من نصيب جسم الرجل ، فاننا نقرأ فى النصوص : ان المرأة كانت تطلى جسمها بالعطور والأدهان لتصقله وتجعله براقا ناعما تحت ثيابها ، ونرى فى الصور فوق شعر المرأة قطعة من الدهن العطرى الابيض ، ينحل دهنها فوق الشعر شيئا فشيئا كى يحفظ له طراوته ولمعانه ، وفى وصف المرأة فى نصوص المصريين كثير يدل على طيب اريج ثيابها وجسمها

الاصباغ

لم يكن بياض البشرة فى مصر القديمة يعتبر جمالا ، ذلك أن شمس مصر اللافحة تخرج ذلك اللون الخمرى البديع ، الذى يجعل من بشرة المصريات خلابة وظرفا لاتصل اليه البشرات الاوربية البيضاء الناصعة ، اذن فقد كانت النسوة المبيضات اللون تسعى الى الوصول للمثل الأعلى فى جمال البشرة ، فيعمدن الى الحناء وهى من النبات المصرى الاصيل فيصبغن بها أجسامهن ووجوههن لتصبح لهن تلك البشرة النحاسية الخمرية الظريفة .

وهذا ما يطابق تمام المطابقة الغرض الذى استعملت فيه « البودرة » الاوربية . اليس منشأ البودرة هو الحصول على بياض يقترب من بياض المثل الأعلى للجمال الاوربى ؟

والأحمر ؟ فيم تحتاجه المرأة الخمرية اللون ؟ المحمرة البشرة بطبيعتها ؟ ثم أى جمال تشاهده الآن فى تلك الشفاه الحمراء فى لون (الطماطم) بين خدود خمرية وشعر أسود فى لون الفحم ؟ إنها تبعث فى العين تنافراً قل أن يرضى أحدا .

لهذا لم يعرفه المصريون فى زينتهم مع معرفتهم للونه ومسحوقه فى تلوين الجدران البيضاء ، وفى التصوير على الفخار ، وفى الكتابة على البردى . . . .

لكنهم عرفوا (الكحل) ووضعوه فى عيونهم ، وجعلوا منه الوانا متباينة بين الاسود الفحمى والأخضر القاتم ، والازرق الداكن ، والعسلى الغميق ، وكلها لتطابق الوان الشعر والعيون والاهداب ، وتتمشى مع تناسق ألوان هذه الاجزاء فى الجسم .

* * *

واليك صورة جميلة للمرأة المصرية القديمة :

« امرأة رشيقة فى ثوب رقيق ناعم من الكتان ذى ثنيات طويلة يستر كل جسمها ويدل على مواضع الجمال الطبيعى فيه ، ذات وجه خمرى يبدو فوق هذا الثوب الانيق بجماله الطبيعى ، خفيفة حمرة الشفاه ، بيضاء الاسنان ، سوداء العينين مكحولتهما بكحل يطابق لونه لون حبة عينها ، مرسلة الشعر الاسود فى ضفائر على كتفيها ، ينتشر اريجه وطيبه وعطوره ، وتضع فى قدميها صندلا رقيقا يزيدها رشاقة وأناقة . .

هذه هى مثل الاناقة المصرية ، والتواليت المصرى منذ خمسة الاف عام ! . . ؟

حى بن يقظان

لمحة عن النظريات والمذاهب الفلسفية التى توحيها مطالعة الكتاب

لكتاب حى بن يقظان مقام جليل فى تاريخ الفلسفة العربية ، سجل لصاحبه شهرة واسعة فى القرون الماضية لاسيما فى بدء نهضة الافرنج . ولانزال نذكر الى الآن مؤلفه ابن الطفيل كلما طالعنا كتاب « روبنسن كروزو » لديفو الانجليزى ، فنحن وان كنا بغير حاجة فى هذا العصر الى مافى هذه القصة من نظريات عقلية أو مذاهب عملية نرتب عليها أعمالنا فى الحياة ، لانزال نحفظ لمؤلفها فضل الاسبقية فى مثل هذا الفن القصصى الفلسفى ، ونريد أن نذكرها كلما اتينا على ذكر ديفو وبطل قصته روبنسن كروزو . ولست أريد من ذلك ان قصته روبنسن هى ككتاب حى بن يقظان قلباً وقالباً ولكن أريد ان اشير الى شبه فى الفكرة ومجانسة فى الفن القصصى .

ولننتقل بعد هذه الكلمة الى مانحن بصدده من استخراج النظريات والمذاهب الفلسفية من قصة حى بن يقظان لنتبين قيمة هذا التراث الفلسفى الخيالى فى أدبنا العربى

لانريد ان نقول - قبل أن نأتى على تلخيص القصة - ان ابن الطفيل قد ضمنها زبدة التعاليم الفلسفية العربية ، والمذاهب العملية وصاغها فى قالب خيالى جذاب تستشف من ورائه شخصية الفيلسوف الوادعة ، وفكرته الخاصة التى تنهتك سراعاً للخبير ، فكان بذلك سابقاً لديفو واضرابه من الافرنج القصصيين :

فأول مايستلفت نظرك أيها القارىء الكريم من هذا الكتاب هو عنوانه الرمزى الغريب : حى بن يقظان . فمن هو هذا « حى » ؟ وابن من ؟ ابن يقظان . . . هذا الاسم رمزى فى مدلوله وهو فى عرفهم ابن من لاينام أى الله عز وجل

وتفتح الكتاب فاذا هناك مقدمة وجيزة فى نقد الفلاسفة الأسلاميين ، ونظرة سريعة فى الحكمة المشرقية سيشرحها لك منفصلا عند الحديث على بطله حى

كل الكتاب نظريات وثبت للمذاهب الفلسفية ، فأول ماتفاجا به أيها القارىء هى هذه النظرية ، نظرية التوليد من غير أم واب ، فيدهشك هذا القول من فيلسوف إسلامى ويغضبك خصوصا اذا كنت من اصحاب الايمان الحار ، ويأخذ بك ابن الطفيل فى منعرج هذا المذهب الوعر الذى يصعب علينا حله واتباعه ، ويستطرد فى كيفية تخمر الطينة تحت اشعة الشمس وعلوق الروح بها ، فيلذك الاستطراد ولا يعجبك الاعتقاد ، والحق يقال ان هذا المذهب